زيارة بولندي مسلم إلى مكة

تقرير عن زيارة بولندي مسلم إلى المملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٤م، وعن مقابلته الملك عبدالعزيز

أندرزيه كابسكي
جامعة ياجيليات ـ كاراكاو - بولندا

حينما حصلت بولندا على استقلالها سنة ١٩١٨م، بعد (١٢٣) سنة من تقسيمها بين روسيا وبروسيا والنمسا، صارت مرةً أخرى بلداً يضم مجموعات قومية واثنية ودينية متعددة. ومن بينها آلاف عديدة من المسلمين البولنديين يعيش معظمهم في الأراضي الشرقية البولندية، ويتحدرون من أسلافهم التتر الذين صاروا رعايا بولنديين في القرون الوسطى وتمتعوا بالتسامح الديني الذي ضمنه لهم ملوك بولندا، وحافظ هؤلاء المسلمون على تقاليدهم الإسلامية، وغالباً ما شاركوا في الحياة البولندية، وخاصة حينما خدموا في الجيش البولندي الذي يتكون من وحدات اثنية من بينها وحدات عسكرية مسلمة. وبعد الحرب العالمية الأولى وبعد قيام الاتحاد السوفيتي وجد بعض البولنديين المسلمين أنفسهم فجأة ضمن الحدود السوفيتية، فهربوا من الحكم الشيوعي إلى بولندا. ومن ضمن هؤلاء ستانسلو أ. كوروين المعروف باولوسكي (Stanislaw A. Korwin Pawlowski). كانت عائلة كورين على علاقة مع التتر على مر العصور، وبعد اشتراكه في حروب القوقاز عاد إلى بولندا في سنة ١٩٢١م، واستقر في مدينة وارسو. وفي سنة ١٩٢٣م أسس الجمعية البولندية الآسيوية (تحول اسمها إلى المعهد البولندي الآسيوي في سنة ١٩٢٥م) لتعزيز الصلات الاقتصادية البولندية بالشرق. وللمعهد علاقاته بوزارة الخارجية البولندية وبالاستخبارات البولندية. وفي سنة ١٩٣٠م غادر كورين المعهد البولندي الآسيوي بعد خلاف نشأ بينه وبين هاتين المؤسستين الحكوميتين اللتين هددتا استقلالية المعهد، وقرر أن يسافر إلى مصر.

وفي القاهرة انضم إلى جامعة الأزهر. وخلال تلك السنوات العديدة التي قضاها في الشرق الأوسط عمل أيضاً لمدة أشهر قليلة في السعودية (١٩٣٤م)، وشارك في الثورة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني.

وفي سنة ١٩٣٩م أُجْبر على مغادرة مصر. ويلقي في مذكراته باللائمة على البريطانيين الذين تَسببوا في طرده من مصر نتيجة نشره مقالات زعم فيها أن بعض الأخبار المتعلقة بـ " ت. أي. لورنس" لم تكن سوى قصص مختلقة. وذكر أيضاً في مذكراته أن السلطات المصرية قد اتهمته بالتجسس لصالح ألمانيا وإيطاليا.

وبعد عودته إلى بولندا، أخذ يُعد نفسه للسفر إلى إيران ليعمل مراسلاً لوكالة المبرقات البولندية، إلا أن قيام الحرب العالمية الثانية قد حال دون ذهابه، وظل في وارسو.

وخلال الحرب قبض عليه البوليس السري الألماني (الغستابو)، وأمضى زمناً طويلاً في معسكر أوشويتس الألماني. واستطاع النجاة من مذبحة أوشويتس بأعجوبة. وبعد انتهاء الحرب عاد كوروين إلى وارسو، وعمل في وزارة الخارجية بعض الوقت بصفته مديرا للقسم الشرقي، وبعد ذلك تقاعد عن عمله.

وفي سنة ١٩٦٦م نشر مذكراته تحت عنوان: "السباق من أجل الحياة" (١).

لقد احتل ستانسلو أ. كوروين (باولوسكي) مكاناً مهماً في تاريخ العلاقات البولندية السعودية. فقد كان أحد البولنديين المسلمين القلائل الذين زاروا المملكة في الثلاثينيات الميلادية، وسعى إلى تأسيس تمثيل دبلوماسي بولندي، وإلى تطوير العلاقات الاقتصادية بين البلدين.

يجب أن نذكر هنا أن الاتصالات بين بولندا ومملكة الحجاز، ولاحقاً مع المملكة العربية السعودية بدأت منذ وقت مبكر. ففي يناير ١٩٢٣م زار حبيب لطف الله ممثل مملكة الحجاز السفارة البولندية في لندن؛ ليعرض سياسة الملك حسين " الساعية إلى إقامة علاقات ودية مع بولندا والشعوب العربية "، ومشدداً على تطابق المصالح المتبادلة إزاء التوسع الروسي(٢).

---

(١) لمعرفة المعلومات المتعلقة بحياة كوروين انظر كتاب:
Stanislaus A. Korwin (Powlowski) , The race For Life. 1966 .

(2) Archiwam Akt Nowych Warsaur, documento of Ministry of Foreign Affairs (Latr AANMSZ) , London Embary Set, folden no. 333 .

وفي فبراير سنة ١٩٢٤م قررت وزارة الخارجية البولندية الاستجابة لهذه المبادرة " بطريقة غير ملزمة "، فأرسلت وزارة الخارجية للملك حسين مذكرة تشعره بتسلم الرئيس الجديد البولندي أعماله الرئاسية(٣).

وفي يوليو سنة ١٩٢٤م نقل حبيب لطف الله إلى السفير البولندي في روما رغبة الحجاز في إقامة علاقات رسمية مع بولندا(٤).

وبعد خمس سنوات وفي يونيو ١٩٢٩م زار ممثل الملك عبدالعزيز مدينة وارسو، وطلب من الحكومة البولندية الاعتراف بالملك عبدالعزيز ملكاً على الحجاز والتوقيع على معاهدة تجارية معه.

وزار الأمير فيصل بولندا مرتين. ففي عام ١٩٣٤م منحه الرئيس البولندي إجناسي موسيكي (Ignacy Moscicki) أحد الأوسمة البولندية الرفيعة وسام (Polonia Restituta). إلا أن العلاقات الدبلوماسية لم تنشأ بين البلدين.

ومع ذلك فقد بدأ التعاون الاقتصادي بين البلدين، وخاصة حينما قامت الوكالة الحكومية البولندية (SEPEWE) ببيع الأسلحة والذخيرة إلى المملكة(٥). وبدأ الحجاج البولنديون منذ سنة ١٩٢٠م بأداء فريضة الحج. وزار المفتي البولندي يعقوب زمكووتس (Jakub Szymkiewicz) من مدينة ملينوس (Vilnius) مكة المكرمة مرات عدة.

وفي سنة ١٩٣٤م سُمح لكوروين، الذي كان في جامعة الأزهر آنذاك، أن يشارك بصفته مراقباً في بعثة رابطة العالم الإسلامي التي طلب منها اليمن الذهاب إلى السعودية للتوسط في حل الصراع الدائر بينهما. ووصلت البعثة إلى القنفذة(٦)، الميناء السعودي الواقع على البحر الأحمر، واستقبلها الأمير، وتوجه معها إلى جازان لمقابلة الملك عبدالعزيز.

وبعد المقابلة توجهت البعثة إلى اليمن. ومن هناك عاد كوروين حاملاً رسالة رسمية إلى الملك عبدالعزيز. وقد تشرف بمقابلة الملك عبدالعزيز للمرة الثانية.

ويصف في مذكراته هذه المقابلة مؤكداً على اهتمام الملك بالسياسات الخارجية لبولندا، وخاصة علاقاتها مع تركيا وإيران. وخلال المقابلة أشار

---

(3) AAN MSZ, ibid, folder no. 413 .

(4) Ibid .

(٥) تمت الموافقة في سنة ١٩٣٣م خلال زيارة قام بها إلى وارسو ج ب فيلبي، المستشار المشهور للملك عبدالعزيز.

(٦) غالباً ما يطال التحريف الأسماء العربية الواردة في مذكرات كوروين. وارتكب اخطاءً كثيرة في نقل الأسماء العربية إلى البولندية. وهذا أدى إلى صعوبة التأكد من الأسماء التي يشير إليها.

الملك إلى مقابلته لمفتي بولندا زمكووتس. ثم اقترح الملك عبدالعزيز على كوروين أن يعمل في المملكة، وأن يقوم بالبحث عن المصادر المائية، فوافق كوروين، ثم ذهب إلى القاهرة لإنهاء أعماله هناك. وحصل على تفرغ من الأزهر بعد أن قدَّم بحثاً عن الحركة الوهابية(*)، وتزوج امرأة مصرية قبل مغادرته القاهرة. وسافر عبر عمان إلى الجوف، ومنها إلى حائل. وهناك قابل فريق الحفريات الذي أرسله الملك عبدالعزيز، وبحث عن المياه في حائل طيلة الأشهر التالية، وعثر على بعض الماء في شمال نجد مما يعني وجود مسارب للمياه الجوفية بمحاذاة محور الجوف ـ الشقيق، وحائل ـ تيماء. واكتشف بالقرب من تيماء وجود تربة مروية خصبة تحت السطح.

ومع ذلك فلم يكن كوروين سعيداً بعمله ؛ نظرا للنتائج المتواضعة غير المشجعة، وقد ألقى باللائمة على العمال المحليين وعلى عدم توفر المعدات الملائمة وعلى نقص الموارد المالية، كما اعتقد أن الأمريكيين المنقبين عن النفط في نجد كانوا غير راضين عن العمل الذي يقوم به في المنطقة. وقد تشكك في أن الملك عبدالعزيز قد استعمل اتفاقه معه لمساومة الأمريكيين حول التبادل التجاري.

وكان كوروين معجباً بشخص الملك وبإخلاصه للدين الإسلامي وبثقافته وكرمه. وقد كتب في مذكراته ما يلي :

" لقد ظهر في الربع الأول من القرن العشرين ثلاث شخصيات عظيمة: شاه إيران رضا بهلوي، ورئيس جمهورية تركيا مصطفى كمال، وملك الجزيرة العربية عبدالعزيز آل سعود. وأعتقد – حسب تقديري – أن الثالث أبرزهم جميعاً. فالملك الإيراني والرئيس التركي كانا يعيدان تنظيم بلدين موجودين فعلاً، ومعروفين بغنى تقاليدهما وتنوع المتخصصين فيهما. في حين كان على الملك العربي عبدالعزيز أن ينشئ كل شيء من العدم ومن الفوضى، وقد نجح في ذلك. فقد كان سابقاً لزمانه بذكائه واعتداله !(٧).

وقد حاول كوروين تقريب صورة الملك عبدالعزيز من القراء البولنديين

(❖) من الأخطاء الشائعة لدى كثير من الأجانب ممن كتبوا عن المملكة العربية السعودية وصف دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب – رحمه الله – بالحركة الوهابية، وكأنها تخالف ما كان عليه السلف الصالح. وهذا غير صحيح ؛ إذ إن دعوته إعادة لمذهب السلف، وليست مذهبًا جديدًا. للاستزادة ينظر ما كتبه د. محمد بن سعد الشويعر في ذلك.

(7) The Race For life pp. 135 .

حينما قارنه بقيصر روسيا العظيم بيتر الأول. فكلاهما قدَّم خدمات جليلة لوطنيه، إلا أنه أكد أن الملك عبدالعزيز لم يكن عنيفاً كبيتر الأول. كما أنه قارن بين مصير مدينة بريدة(❖٢) التي دمرها الجيش المصري، ومصير وارسو التي دمرها الألمان في الحرب العالمية الأولى.

وبعد أن أنجز كوروين الجزء الأول من عمله قرر أن ينهي مهمته، ويعود إلى مصر. وسافر إلى بريدة لتوديع الملك، وكان فخوراً بالعباءة والجبة المذهبة التي خلعها عليه الملك عبدالعزيز، وكذلك بسلة التمر الجيد التي أهديت له.

ومن بريدة ذهب كوروين عبر الرس والمدينة المنورة وينبع إلى القدس. ومن هناك إلى القاهرة. وبهذا تنتهي أحداث حياته المتعلقة بالمملكة العربية السعودية. ومع ذلك فقد أعجب بما شاهده في المملكة، وكتب مذكرة إلى وزارة الشؤون الخارجية البولندية يقترح فيها فتح وكالة أو قنصلية دبلوماسية في الحجاز. واستجابة لهذه المذكرة كتب د. يان ستارزوسكي (Dr. Jan Stargewdki) مساعد مدير القسم السياسي إلى وزير الخارجية البولندية قائلاً: " إن التطورات التي تشهدها تلك المنطقة تجعل من الضروري مراقبة تلك التطورات في تلك المنطقة "(٨).

وعلى أي حال فإن فكرة كوروين افتتاح قنصلية بولندية في المملكة لم تتحقق في ذلك الوقت.

وحينما سوغت العلاقات التجارية افتتاح قنصلية بولندية في المملكة، انفجرت الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب العالمية أدت الهيمنة الروسية على بولندا إلى استحالة افتتاح قنصلية بولندية في المملكة.

وبعد خمسين عاماً من اقتراحات كوروين أقامت بولندا علاقات دبلوماسية مع المملكة. وبدأت بولندا أخير تهيئة نفسها لافتتاح سفارتها في الرياض.

❖ ❖ ❖

مقتطفات من مذكرات كوروين يصف فيها زياراته للملك عبدالعزيز(٩).

كان الملك عبدالعزيز طويلاً (١٩٠سم) ونحيلاً وقوياً كالحديد، ويعيش حياة متواضعة. فهو بصفته مسلمًا حقيقيًا لم يمس المشروبات الكحولية قط، وبصفته وهابيّاً لم يدخن التبغ أو يقامر على الإطلاق. وكان يحافظ

(❖٢) يقصد الدرعية.

(8) AANMSZ, foldasr no 5881 and 5882 .

(9) The Race for life, pp. 130 - 135 .

على التقاليد السعودية، فلم يضحك(❖٣)، ولم يستمع الموسيقى أو الغناء، ولكنه استمع المحاورات العلمية والثقافية. وحينما كان شاباً اعتاد أن ينام ٤-٥ ساعات ليلاً، ثم منح نفسه أخيراً ساعة إضافية. كان يأكل مرتين في اليوم. وتتكون وجبته الأولى من اللبن والبيض والفول والخضار والبصل والجبن المستخرج من حليب الماعز والشياه وفطائر البر بدلاً من الخبز والسمن والفواكة. أما الوجبة المسائية فتتكون من اللحم الضاني والرز المطبوخ والشوربة والتمر بالإضافة إلى الماء.

ولم يكن في غرفة نومه أي نوع من التدفئة حتى في ليالي الشتاء الباردة، ولم يوضع " المنقل " في داخل خيمته. وكان يعالج نفسه بالصوم وبالقليل من الماء.

وكان يرتدي في مجالسه ملابس بسيطة ومتواضعة. ولم يتخذ قواعد تشريفية معينة في مجالسه، ولم يلبس أي علامة تدل على جلالته. وكان عرشه كرسياً كبيراً بسيطاً " مذهباً "، ويغطيه جوخ أخضر، وينتصب خلف الكرسي علم المملكة الأخضر، ويظهر عليه نخلة وسيفان متقاطعان.

ولم يكن الملك على أي حال بخيلاً، فكل يوم يُطبخ الطعام لمئات عديدة من الضيوف والمراجعين والحراس والمسافرين والشحاذين. ويتكون الطعام من اللحم الضاني المشوي والمطبوخ مع الرز والخبز البر واللبن الحامض. ويمكن للمرء أن يأكل وأن يعود في اليوم التالي.

فالكرم والبساطة في التعامل مع الناس والمساواة الصارمة بينهم كان ضرورياً لاستقطاب صداقة البدو. وفي هذا المضمار اختلف آل سعود عن آل الرشيد في حائل الذين كانوا يفضلون الأُبهة، مقلدين في ذلك أساليب الحياة في إسطنبول.

بنى الملك عبدالعزيز قصراً جديداً لنفسه في مدينة الرياض، قصراً كبيراً يحتوي على غرفتين كبيرتين للمقابلات وفناء واسع. وكان القصر نظيفاً ومرتباً ؛ لأن الملك قد أولى هاتين القضيتين اهتماماً بالغاً. وكان قسم الرجال مؤثثاً بالسجاد النفيس وبالطاولات الصغيرة المطعمة بالفسيفساء وخشب الأبنويس الأسود. ويغطي أرضية القصر حصيرات مصنوعة من سعف النخيل ذات لونين بني غامق ولون يميل إلى الأصفر. وبجانب الجدران أهرامات من المخدات والوسائد، يأخذ أحدها الزائر،

(❖٣) يقصد في المجالس العامة والرسمية.

فيجلس عليها متكئاً على الحائط. وتحضر الصحون وتوضع على السفر المخصصة لعشرة رجال ؛ ليجلسوا حولها، ويتحلق الحاضرون حول صحون الطعام، ويأكلون بأيديهم. وبعد العشاء يتجهون إلى أحواض المياه لغسل أيديهم. ونادراً ما شارك الملك هؤلاء الضيوف طعامهم، إذ إنه غالباً ما يتناول طعامه بمفرده ودون أولاده.

ولم تتح لي فرصة سماع شيء عن حياة الملك عبدالعزيز الخاصة أو عن زوجاته. فلم يناقش أحدٌ من المقربين إليه هذا الموضوع معي، ولم أتساءل عنه شخصياً. إلا أنني علمت من كتاب ألفه أحد الأوروبيين مؤخراً شيئاً قليلاً عن زوجته المفضلة لديه الجوهرة التي تزوجها سنة ١٩٠٦م وكان عمرها (١٧) سنة (تعد كبيرة بمقاييس التقاليد البدوية وكان عمره حينئذٍ (٢٧) سنة. وتوفيت في سنة ١٩١٨م، وهي السنة نفسها التي توفي فيها ابنه تركي من زوجته الأولى.

وقد ميزت الجوهرة نفسها بثقافتها، فقد كانت تقرأ وتكتب، وهو شيء استثنائي بين البدويات، وغالباً ما كانت تقرأ كتب التاريخ والفلسفة، وكانت مُلّمة بالشعر العربي، ولديها اهتمامات بالبلاد غير الإسلامية. وقد استعان الملك عبدالعزيز بآرائها، وأمضى معها معظم لحظاته الحره. وحينما توفيت أبقى غرفتها على حالتها. وكان يزور قبرها في مقبرة العاصمة القديمة حينما يكون في الرياض.

وكان للملك زوجات عديدات، وكانت مصلحة الدولة وراء هذه الزيجات، فهو يتزوج ويطلق لتقوية الصلات مع قبائل معينة أو عائلات معروفة. ويجب أن أشير هنا إلى أن الطلاق لا يجلب عاراً على المرأة أو أهلها في المملكة. وحسب ما أذكر، ربما سنة ١٩٣٦م تزوج الملك عبدالعزيز امرأة من قبيلة شمَّر ؛ ليعزز تأثيره في هذه المنطقة التي ضمها إلى مملكته منذ (١٥) سنة.

لقد قابلت، كما ذكرت آنفاً، الملك عبدالعزيز ثلاث أو أربع مرات، ولكنني لم أستطع التحدث إليه لمدة طويلة إلا مرة واحدة حول عملي، وأتذكر أنه أفاض في الحديث عن الزراعة وعن إسرائيل وعن الشعار السعودي.

ويرى الملك أن بلده يستطيع أن ينتج الغذاء لو أن قسماً مركزياً يقوم بتنظيم الشؤون الزراعية، ويتمتع بصلاحيات واسعة.... كل شيء يشير إلى حل كهذا، مثل توزيع الأراضي الزراعية والعناية بالطرق، كما أن المشروعات

المائية تتطلب عمالاً كثيرين وتوزيعا متساويا للسكان. فما أفضل المحاصيل للزراعة ؟ وأين وكيف يمكن تحقيقها ؟ وأين تُخزن المحاصيل ؟. فعلى سبيل المثال لدينا في المملكة نسبة كبيرة من المواطنين المتحدرين من أصول أفريقية، ولكن ليس لديهم الخبرة الزراعية، وإنما يمكن الاستفادة منهم في العناية بقطعان الماشيه أما الخيول فلا يمكن ذلك. ولم أصل بعد إلى معرفة ما يمكن زراعته على نطاق واسع هل يمكن أن يكون القطن أو القهوة أو الشاي... ؟ إن الشيء الوحيد الذي يمكن التأكد منه هو الكمأة (Kama).

وبما أنني مهتم بوجهة نظر الملك عبدالعزيز حول اليهود ؛ فقد بدأت بالحديث عن تنوع الأجناس البشرية التي قابلتها في نجد. وذكرت الملامح الأفريقية في بعض النجديين، وسألت عن الأكراد والإيرانيين واليهود، وشارك الملك في الموضوع، فذكر أن الدراسات المتعلقة بالسكان تهمه ؛ نظراً لتأثير الأجناس الأخرى على العرب. ويرى أن هذا التأثير قد أضعف الميزات والسمات العربية بين السعوديين.

ولم أحصل من تعليقات الملك على معلومات لم أكن أعرفها من قبل، ولكن الشيء الوحيد والواضح أنه لم يُظهر كرهاً أو عداوة ضد اليهود

وأكد شدة تأثير الدم العراقي والسوري أكثر من التأثير الأفريقي ؛ لأن الحدود مع العراق وسوريا مفتوحة.

وقال الملك :" يجوب صحراء شمر عدد من القبائل المتحاربة أو الساعية إلى تحسين أوضاعها، وانتماء هذه القبائل يقرره المكان الذي يقيمون فيه. وفي الماضي كان هناك عدد كبير من اليهود وخاصة ما بين المدينة المنورة وتيماء. وخلال الغزو المصري الأول (في بداية القرن التاسع عشر الميلادي) انحاز اليهود إلى جانبنا. وخلال طفولتي كان مركزهم في خيبر، وهو مكان جميل. وما زال بعضهم يعيش هناك ".

أما فيما يتعلق بالشعار السعودي، النخلة والسيفين المتقاطعين فقد أخبرني الملك عبدالعزيز أنهما يمثلان الرخاء المحفوظ بالطاعة للملك والإيمان بالله. ويبدو أن اضطرار الملك إلى تكرار شرح معاني هذا الشعار يسبب له ازعاجاً ؛ إذ إنه أبدى بعض الامتعاض أثناء تعليقاته وملاحظاته.